
سورة يونس



بسم الله الرحمن الرحيم

وتبدأ سورة يونس[1] بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن ، ولكن المختلف فيه : أهى آية من كل سورة ؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء ؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى أوائل مائة وثلاث عشرة سورة ، ومرة واحدة فى صلب سورة النمل :

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]

إذن : فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى سورة النمل بعض آية من القرآن ، وآية من السورة ، ومن قال من العلماء : إنها آية من كل سورة ؛ يجهر بها فى الصلاة ، ويسميها الآية رقم واحد ، والآية التى تأتى بعدها برقم اثنين . ومن قال : إنها نزلت للفصل بين السور ، نقول له : إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور ؛ فما كانت لتأتى فى سورة الفاتحة ؛ لأن الفاتحة أول سور القرآن . ولكن صاحب هذا الرأى ، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تبركاً .

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة ، وقد حسبوها كذلك فى طباعة المصاحف ، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى الآية الثانية ، ولكن فى بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات .

وبعض آياتها مدنية على اختلاف بين العلماء ، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هى آيات : ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ..﴿٩٤﴾﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ . وقال الكلبى : إنها مكية إلا قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ... ﴿٤٠﴾﴾ [يونس] . ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية .

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد.

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا: إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وينبت لك الحق الزرع . صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلَّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

وهناك أفعال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الزبان[1] البسيط ؛ ليكوِّن الجذور، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو الزبان البسيط التافه فى رؤية الإنسان.

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى المياه ، وهى قدرة هائلة

(١) الزبان : أصله فى اللغة زبانى العقرب أى طرفا قرنيه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ز ب ن).

لدرجة أنهم فى الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً فى الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون فى هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالمياه ينفجر الجبل.

وأنت حين تضع الحبة فى الأرض ، فالحبة تخرج نبتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور التى تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتى اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر فى الأرض . وتَرقّ فلقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرَار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهى من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً.

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتى لتزرع وتقول : باسم الله أزرعكِ ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذى سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شىء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذى خلقك ؛ لأنك قد تأتى لرفع الشىء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد.

إذن : فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فَادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذى سخَّر لك كل شىء.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1] .

---

(١) الأبتر : الأقطع ، وهى صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر] أى المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ فيه ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام .

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن ينفعل لك شىء ، فكل شىء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن: فابدأ كل شىء باسم الله . وفى أعرافنا السياسية يقول القاضى لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلى» أى : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور .

إذن: حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكِّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه .

وساعة تقبل على أى عمل وتتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشىء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شىء ، تكون قد بَرِئت من حَولكَ ومن قوتك .

وهنا يقول الحق : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهنا الرحمة بالخلق ؛ ليرفع عن العاصى الحرج فى أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، ويُذكِّرك الحق بأنه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى فى سورة يونس :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾

و﴿الٓر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿ الٓمٓ ﴾ فى أول سورة آل عمران ، وفى أول سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهنا ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾و ﴿الٓر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شىء له اسم وله مسمى ، أنا اسمى الشعراوى صحيح ، والمسمَّى هو صورتى . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى فى الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتى إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتى إلى الذهن المكان المحيَّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أمىّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾ وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد ﷺ أمّىّ لم يتعلم ، فمن الذى علَّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت [1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر .
وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال :
١- أنها مما استأثر الله بعلمه .
٢- أنها دلالة على أسماء السور .
٣- أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد) .

من: رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ[1] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل :﴿طه﴾. ﴿يسٓ﴾. ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓر﴾ .

وثلاث سور تتفق فى الألف واللام . وتختلف فى " الميم والراء" . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس و ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يوسف . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓر﴾ فى أول سورة الحجر .

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل : (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) - (الإصمات ، الإذلاق) . وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهى : الفاء ،الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء ويجمعها قولهم : « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهى « حروف جهرية » أى : فيها قوة فى النطق بها . انظر تفاصيل هذا فى كتاب « هداية القارى إلى تجويد كلام البارى » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفى (ص ٧٩ - ٩٣) غفر الله له ورحمه .

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الٓمٓصٓ﴾ في أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿الٓمٓر﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢)﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان في أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طه﴾ ، و﴿يسٓ﴾ . أما في سورة النمل فهي تبدأ بـ ﴿طسٓ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتي خمسة حروف مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفي[1] . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم" في القرآن في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهي ألف وصل ، أي : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق]

(١) توقيفي أي : أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شيء في القرآن من فواتح السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور في المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة ، بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل .

(٢) وردت كلمة (باسم) في القرآن ٤ مرات في قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾[العلق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ في ثلاثة مواضع [الواقعة : ٧٤ ، ٩٦] ، و[الحاقة : ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات في القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١)﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة في بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية في أولها .

ومثال آخر لو استعرضت فى القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة من غير ألف [1] ، وكلمة " البنات" نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [2] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم» من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أى : كما أمر الحق سبحانه [3] .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التى فى ختام أى سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت فى القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف فى قوله تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ تَبَـٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ... (١) ﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف] ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان (١) ، (١٠) ، (٦١)] ، [غافر (٦٤)] ، [الزخرف (٨٥)] .

(٢) وردت كلمة البنات فى القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَـٰتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾ [الطور] .

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون فى قواعد الرسم القرآنى ، وأن لهذا الرسم حكماً خفية تكلم فيها علماء . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [1] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله مَوصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [2] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب نَنطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [3] ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تنبنى على طريقة المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم" .

---

(١) عضين : أى : أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾ [الحجر] . ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

(٢) أى : أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم فى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ [الأنعام] .

(٣) الإظهار والإقلاب : حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين .

- أما الإظهار : فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى : التى مخرجها من الحلق وهى : الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء . عندها يجب الإظهار ، أى : إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف .

- أما الإقلاب : فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين ، فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغُنَّة ، ومثال هذا : ﴿ أَنبِئُونِي ...(٣١) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] .

ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التى بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هى ، فننطق « ألف » ثم نقف ، ونقرأ " لام " ثم نقف ، ونقرأ " ميم " ثم نقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلّمها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سواء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأى هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك فى القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن فى القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿ الٓمٓ ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا فى القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرِّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[1] مع استراحة النفس له .

(١) عن على بن أبى طالب قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٣) والدارقطنى فى سننه (١/ ١٩٩) .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا [1] نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى [2] لها الله ما جاء خبره فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦ ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه فى البحر ، طبعاً لنَ تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... ⑦ ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء : أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ ﴾ [القصص] . وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر بينهم ويكون سبباً لهلاكه وذهاب دولته .

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه : بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ⑥⑧ ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى : الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل .

وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٣٩) ﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ...(٣٩) ﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوِّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ...(٣٩) ﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ الٓمٓ ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذى يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك فى قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله فى اللفظ ؛ فليس كل قارئ للقرآن متخصصاً فى اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمى ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحًا ، أو النهر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر . وساحل اليم : شاطئه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر" ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر[1] يقول :

* ألا هُبِّى بِصحْنك فَاصْبحِينا *

ويقول :

ألا لايَجْـهَلنْ أحدٌ علَيْنا   فَنجْهَل فَوْقَ جَهْل الجَاهلينَا[2]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام فى أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت[3] .

(١) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفى نحو عام ٤٠ قبل الهجرة . من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤) .

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهى من بحر الوافر .

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هى : التمنى والاستفهام عن النفى والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان بـ ﴿الٓمٓ﴾ ؛ حتى نسمع ، ثم تأتى الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع فى أن نفهم أن النبى الأمى لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معانى كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفته، وصفته لا تتناهى فى الكمال، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له[1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذى بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه . ويقول لهم: هاتوا مثيلاً له ، ولن تستطيعوا[2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم فى الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها فى لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التى تبنى منها

---

(١) يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف] ، ويقول : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان] .

(٢) وفى هذا يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق[1] الذى جاءت به الحروف ، فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاًّ منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها[2] .

---

(١) النسق من كل شىء : ما كان على طريقة نظام واحد .

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : أباريق ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أسفار . الجبت . وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين : حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وعبرية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعي وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قُرآنًا عربيًا ... (٢) ﴾ [يوسف] .

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآنا عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق » .

لذلك شاء الحق أن يأتى القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التى فى أوائل بعض السور وقبلوها ، والحق سبحانه يقول :

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① ﴾ [يونس]

و﴿تِلْكَ﴾ : إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هى التى تشير إلى شىء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهى حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهى مؤنثة ، و«الكاف» فى ﴿تِلْكَ﴾ : للمخاطب ، وهو محمد ﷺ . فالله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق :

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ[1] مِن رَّبِّكَ ... ㉜ ﴾ [القصص]

و«ذَانِكَ» : إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ...⑫ ﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ...㊲ ﴾ [يوسف]

---

(١) البرهان : الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوى الواضح .

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[1].

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت: اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتى بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ... (٣٢) ﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣) ﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فالـ «ت» إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ .

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية[2] هى الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة الصيت عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة لمن تشير إليه ، والكاف لمن تخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين :
الأول : أن أسماء الإشارة يراعى فى لفظها ما تشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً .
الثانى : أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى فى لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً .
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهى إذن حرف للخطاب لا للمخاطب ، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤) .

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة ؛ لأنها علامة على صدق الرسول ، والآية العبرة الدالة على العظمة ، والآية من القرآن سميت آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] أى : معجزة دالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .. (١١٨) ﴾ [البقرة] أى : معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات كونية يرجع إليها فى كتاب الله ، وتجمع الآية على آى وآيات ، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته .

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول: إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة.

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة. وتطلق الآيات إطلاقات متعددة: فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ الله بها رسله ؛ ليثبت صدقهم.

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [1] (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق:

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ [2] مِنْهُ النَّهَارَ ... (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن: فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن.

إذن: فالآيات تطلق على ثلاثة أمور: الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها.

---

(١) قالها آل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم.

(٢) انسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس. ويسلخ الله النهار من الليل أى: يخرجه منه.

وهنا في قوله الحق : ﴿الر تلك آيات الكتاب﴾ المراد بها : الآيات القرآنية [1]، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد .

وقوله: ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الحكيم﴾ معناها : الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرّة .

ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدي إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة ؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذي قد يأتي منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء آخر يخفّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبي .

وفي أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع ، واخترعوا مادة اسمها «د. د. ت» لمقاومة الحشرات ، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضي على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

---

(١) المتعارف عليه عند النحويين أن اللام في تلك للبعد ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن . وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد ، وأن تلك بمعنى هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم وصف للقرآن ، دليل هذا : ﴿الر كتاب أحكمت آياته ... (١)﴾[هود] .

الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة . قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع .

إذن : فالحكمة [1] تعنى : أن تضع الشيء فى موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد .

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح . فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتى منه كل نفع ، ولن يأتى لنا أى ضرر ، وضربنا المثل فى المعطيات التى أعطاها الحق لنا فى الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها . وهو القائل :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ... (٧) ﴾

[النحل]

أى : أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض .

(١) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل . قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] والحكيم : ذو الحكمة والرشاد الذى يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم ، والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .. (٢٠٩) ﴾ [البقرة] .

إذن: فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى: وضع الشىء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق : ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل [1]، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك.

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاصل فيها [2].

---

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الماضى الثلاثى المتصرف ، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم ، فيجب التصرف بتغيير صيغة «فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن نقول : كريم ، بخيل . ومن هذا أيضاً حكيم . فهى صفة لها ثبوت ودوام فى حق الله ، ولذلك غيرت الصيغة من «فاعل» إلى «فعيل» . انظر : (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢) .

(٢) القرآن حكيم ؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين .

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم فى قمة العقيدة «لا إله إلا الله » ، وهى شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ...(١٨) ﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن فى هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق فى قمة العقائد . وهو حاكم فى الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً فى الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم فى الأخلاق.

إذن: «حاكم» تعنى ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة.

و« حكيم » : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين: فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتى الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف.

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً فى أمر القمة التى اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل فى هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيَّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛أنتم كذابون ، بل هو إله

واحد ، وهذا أول حكم فى قضية القمة .

وما دام الحكم فى قضية القمة قد صح ؛ إذن : فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعال ، فقد يختلف الناس فى تقييمهم لفعل واحد . فهذا يقول : فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ؛ فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1] .

إذن : فالقرآن حكم فى العقائد وفى الأفعال وفى ذوات الأشياء حلاً وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً فى قضية هامة تلى قضية الحكم فى قمة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم فى هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول . فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣) ﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى : أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه:

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى: من البشر، ومن العرب، ومن قبائلكم، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شىء فى الكعبة، وهو الحجر، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

---

(١) الشىء العجيب : غير المألوف للناس، والآدمى إنما يتعجب من الشىء إذا عظم موقعه عنده، وخفى عليه سببه. وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين، أما القضايا فمنها:

١- قضية توحيد الله سبحانه، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص]

٢- قضية إرسال رجل منهم أى: من البشر، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾[ص]

٣- قضية البعث، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد].

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [1] ، ولم يكن قد نزل عليه وحى بعد ؟ إنها الفطرة التى جعلته أهلاً لاستقبال وحى الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهى هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هى الفطرة السليمة. ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التى كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ،قال : «إن كان قد قالها فقد صدق» .

من أى أحداث جاء حكم أبى بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول. فقد جربه فى كل شىء ووجده صادقاً ، وجربه فى كل شىء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتينى كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التى فى حياته لا توحى بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أى : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتعاقد بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت ، ووضعوا أيديهم فى جفنة مملوءة دماً . وبقى الأمر على هذا أربع ليال أو خمساً . ويروى ابن إسحاق فى السيرة (١/ ١٩٧) ارتضاء قريش حكومة محمد فى هذا الأمر أن « أبا أمية بن المغيرة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إلىَّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن (أى : الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه » .

الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً»[1] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط[2] فى الإسلام.

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى: التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقى ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شىء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذى جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين فى إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشىء الذى يفوق تصوره . وقد يتعجب من شىء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... (٢٨)﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .
– كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول فى كلمات : تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم فتحمل الكل .
وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنها أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحى .

(٢) الاستنباط فى الفقه : هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (٨٣)﴾ [النساء] . والاستنباط فى اللغة : استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت .

أي: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... ② ﴾ [يونس]

وهنا نتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑫⑧ ﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد، فكيف تعجبون؟ [1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب، ونحن نتعجب من عجبكم هذا.

وحين تتعجب من العجب؛ فأنت تبطل التعجب.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... ② ﴾ [يونس]

أي: أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي.

ثم ما هو الوحي؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو الإعلام بخفاء. وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك: يا بني اسمع كذا، وافعل كذا. هذا إعلام واضح. وهناك إعلام بخفاء، كأن يدخل عندك ضيف؛ ثم يسهو خادمك - مثلاً - عن تحيته، فتشير للخادم إشارة؛ تعني بها أن

---

(١) روى ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومما قاله المشركون: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٥٢) وتفسير القرطبي (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٦).

يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء.

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ ﴾ [الزلزلة]

أى : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفياً ؛ وهى قد فهمت بطريقة لا نعرفها.

وسبحانه يوحى للحيوانات، فهو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [1] ... ⑥⑧ ﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول: أنا سمعت الله وهو يوحى للنحل ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى تم بها هذا الوحى ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحى. ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥⑧ ﴾ [النحل]

أى: أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز.

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ ... ①② ﴾ [الأنفال]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

(١) قال الزجَّاج : جائز أن يكون سمى نحلاً ؛ لأن الله عز وجل نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ...(٧) ﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً.

إذن: فسبحانه يوحى للجماد، ويوحى للحيوان، ويوحى للملائكة ويوحى للصالحين من غير الأنبياء، ويوحى للأنبياء وللرسل.

والوحى - كإعلام بخفاء - يقتضى مُعْلِماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً؛ وهو إما: الأرض، وإما النحلَ، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتى الوحى من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا[2] ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...(١٦٣) ﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحى خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحى إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

---

(١) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أى: حسن القول بتزيين الكذب.

(٢) الغُرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغَرور: الشيطان ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية. ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] و ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصى. وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغَرَر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغَرَر، وهو مثل بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغَرَر.

الوحى [١] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوِّل يتحمل طاقة القوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى تضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «ونّاسة». إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تلتقى بالبشر ؛ وهذه خاصية المَلَك.

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [٢] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) .

(٢) تفصد العرق : أى : سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .

عنه الوحى قال: « زمّلونى . . زملونى »[1] ويرتعد.

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحى على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابى ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ ، وإذا نزل الوحى ، والرسول يركب مطية فهى تئط منه[2].

إذن : كان الوحى يُتعب رسول الله ﷺ ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب[3] ؛ تبقى له حلاوة ما أوحى إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحى.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبى ﷺ ، للوحى ففتر[4] الوحى لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبى للوحى ؛ كان ذلك يعنى أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحى ؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول فى رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة[5] ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغّب رسوله شوقاً إلى الوحى ، رغم ما فيه من جهد ؛ لأنه التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا : طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التى ألمت بجسمه مما رآه ؛ عن طريق لف جسمه بالثياب وتغطيته . وزمل الشىء : أخفاه ، وزمله فى ثوبه : أى : لفه . والتزمل : التلفف بالثوب ، وقد تزمل بثيابه أى : تدثر . وفى حديث قتلى أحد : « زملوهم فى ثيابهم » أى : لفوهم فيها . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة .

(٢) تئط الناقة : تئن من ثقل الركبان . عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٣) يسرى عنه التعب : أى : يذهب عنه .

(٤) فتر الوحى : انقطع . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله - عز وجل - من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة] .

(٥) أرض موحلة : أى : أصابها الوَحل ، وهو الطين الرقيق الذى ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض .

ينقلب المَلَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عملية التحويل جاءت فى الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبى ﷺ : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم»[1] .

هذه هى الصورة الأولى فى الوحى ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبى ﷺ .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضى عملية كيماوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : «زمّلونى» .

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحى فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب: إن رب محمد قد قلاه[2] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال ﷺ : «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٨) . والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فى صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ .

(٢) عن جندب البجلى قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : قد وُدِّع محمد . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذى أخرج مسلم من الترمذى حديثه إلى جندب ، بلفظ : «فقال المشركون : ودع محمداً ربه» .

اعترفوا أن لمحمد ربّـا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف [١] وغباء ، وأرادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى [٢] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحى عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربّـا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان.

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث. وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هي عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان.

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان» [٣]، والمكان

(١) الصَّلف : مجاوزة الحد فى الادّعاء والتكبّر.

(٢) قليته : كرهته غاية الكراهة ؛ فتركته . والقِلَى: البُغْض.

(٣) الظرف : هو الزمن أو المكان الذى وقعَ فيه الحدث ، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أى : أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما، ومكان ما.

الذى يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ[١] ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً .

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضى، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه[٢] ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛للسكون والراحة، فإن لم ترتحْ بالليل؛لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له[٣] .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحى بهذا الشكل ، فحين جاء الوحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحى ليستريح ﷺ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحى من بعد ذلك .

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار : مستقر ثابت . ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. (٦٤) ﴾ [غافر] .

(٢) قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (١٦٤) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٠١) : « أى : هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] أى : جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقال مجاهد وقتادة : خلفة ، أى : مختلفين ، أى : هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وهاتان آيتان على توحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً ، ولذلك يقول رب العزة : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] .

وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١)[1] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)[2] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ والضحى ضحوة النهار وهى - كما قلنا - للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده .

إذن : ففتور الوحى لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية . وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتى يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله[3] ، بل شاء بفتور الوحى أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحى . وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفى هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا : إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحى أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذى استقبل به الوحى .

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى ؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] وهذه حماية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] تمام العناية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى] قمة الرعاية ثم أقام له الدليل على العطاء قائلاً : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه العطاءات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر .

(٢) سجى : سكن وأظلم وامتد . والليل إذا سجى : إذا سكن بالناس أو إذا لَبِسَ الناس . وسُجُوُّ الليل : تغطيته للنهار . وسجا يسجو سجواً ، وسجَّى يسجِّى وأسْجَى يُسْجِي : غطَّى شيئاً ما . والتسجية : التغطية .

(٣) تأمل هذا المعنى الذى أشار إليه فضيلة الشيخ فى القسم بالضحى محل الحركة والكد والتعب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة ، ومطابقة هذا لنزول الوحى وجَهْد النبى فى استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ . وقد أضاف ابن القيم ملمحاً مكملاً لهذا المعنى فى كتابه : «التبيان فى أقسام القرآن» فقال : «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودّع محمداً ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه» . نقله السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٤/ ٥١) .

وبعد أن تتجدد حيويته ﷺ يأتى الوحى من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه فى سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [1] (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحى وعودته هى عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة - وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... (٢) ﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه . أما البشارة [2] فهى الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل فى دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفى المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعنى أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على

(١) الوزر : الحمل الثقيل . أنقض ظهرك : أثقلك حمله .

(٢) البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) ﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية .

ما يضره . والتبشير يعنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه. والأمور فى الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول: إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط. أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين فى صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال.

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذى يأتى بالضُّرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [1] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [2].

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس: هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة. وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك فى القرآن ، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له.

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هى سورة «الناس» حيث يقول الحق: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ**

---

(١) الدَّرْء : الدفع . يقول تعالى : ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)﴾ [الرعد] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥١٠) «أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً».

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشارع الأساسية ، والتى دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهى : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة.

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [1] (٤) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ [2] وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» فى كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» فى كل موقع هو معنى مختلف وضرورى ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة فى القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضا فى كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٥٤)﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن: فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ... (٥٤)﴾ [النساء]

إنما يعنى أن هناك أناساً حاسدين [3] ، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا فى حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً: انقبض وتأخّر. والوسواس الخناس المتحيِّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض ، وساعة عزيمة النفس ينفض ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس فى صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خَطْمه (مقدَّم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسى التقم قلبه. فذلك الوسواس الخناس». أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٧٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٦٨). ضعف إسناده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٧٤٢) وقال : «فيه عدى بن أبى عمارة، وهو ضعيف» وقيل إن له رأسا كرأس الحية ، يجثم على القلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس ، أى : ابتعد كمن صدم أو أصابه شىء أبعده . والوسوسة : هى الإيحاء بالشر.

(٢) الجِنَّةُ: هم الجن، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس، ومنه: جنَّ عليه الليل، أى: ستره، ومنه الجَنين ؛ سمى بهذا لاستتاره فى بطن أمه.

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حَسَداً : كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها ، وقد يسعى ليزيلها . قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الفلق] . أى : إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد منبعها الحقد «القاموس القويم للقرآن الكريم» ص ١٥٣ .

والمثال هو قوله الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن [1] آدم ، وآدم هو أبو الناس.

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذى وضعه هو من غير الناس ، فالذى وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هى رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا : إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [2] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (١٢٧) ﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده فى الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب فى العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [3] ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن : ظرف زمان ، والمراد : من زمن آدم عليه السلام.

(٢) القواعد: جمع قاعدة وهى السارية وأساس البناء.

(٣) كان عُمْر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب.

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرَّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس - إذن - عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة فى مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٥٤) ﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التى قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة .

وحين نتناول كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق فى هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) ﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه ؛ فهو سبحانه يقول:

﴿ مَلِكِ النَّاسِ (٢) ﴾ [الناس]

أى : أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار فى أشياء ؛ ومنع عنهم

(١) الاستقراء : القراءة مع التفكير الدقيق فى النص ؛ للوصول إلى المعنى المراد منه . وفى الاصطلاح : تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية . (المعجم الوسيط) .

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه : «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [1] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [2].

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقياً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض.

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [3] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله . وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ ﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية .

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة: ﴿ إِلَـٰهِ النَّاسِ ۝٣ ﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف: أى محل وموضع للتكليف . مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه . وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها، فله أن يؤمن أو يكفر . فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمتطلبات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة .

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به ورزقه وهيئته وخروجه من هذه الدنيا .

(٣) الأحداث : حوادث الدهر وحدثانه أى: نُوَبُه وما يحدث منه ، واحدها حَدَثٌ؛ والحدث من أحداث الدهر : شبه النازلة والرزء والمصيبة .

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]

والآية الخامسة : ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس]

والوسواس الخناس : هو الذى يزين لك أفعال الشر فى أذنك ، وهو خنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس الموَسْوَسِ إليهم .

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت ؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمألوهين ، والموسوس [2] إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس .

إذن : فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - قد أكون معلّماً متميزاً واختارتنى الكلية التى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع .

---

(١) الشيطان : فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد ، وهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب . والشاطن : الخبيث .

والرجم : الرمى بالحجارة . رجمه يرجمه رجماً ، فهو مرجوم ورجيم ، والرجم : اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم» ، أى : المرجوم بالكواكب ، صُرِفَ إلى فعيل من مفعول . والرجيم : الملعون ، المرجوم باللعنة ، المُبْعَد ، المطرود . والرَّجم : ما رُجِمَ به ، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم : النجوم التى تُرمى بها الشياطين : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. ﴿٥﴾﴾ [الملك] .

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة : الصوت الخفى الذى يشبه الهمس . وهو أيضاً صوت الحَلْى (وهو حُلى المرأة) .

والحق يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِندَ رَبِّهِمْ ... (٢)﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن: فالمراد بإنذار الناس هنا؛ هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...(٢) ﴾ [يونس]

إن القدم[2] كما نعرفه : هو آلة السعي إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول: فلان له يد عندي ، أو تقول: أنا لا أنسى أياديك عليَّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه.

إذن: فكل جارحة[3] لها ظاهر في الحركة ؛ وفي الأعمال. فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية. وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

---

(١) قدم صدق : كل ما قدمت من خير. قال ابن قتيبة: أي : أن لهم عملاً صالحاً قدموه. وقدم الصدق: المنزلة الرفيعة والسابقة. ويقول ذو الرمة :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ ... لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ

(٢) القدم : ما يطأ الأرض من الرِّجل وجمعه أقدام قال تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .. (١١) ﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين . وقد يأتي اللفظ عن طريق الكناية في قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ .. (٤١) ﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب ، والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التي يقدمها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [يونس] .

(٣) جارحة جمعها: جوارح، والمراد بها: أعضاء الجسم. وهي مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب. جَرَح الشيء واجترحه: كسبه. كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. (٦٠) ﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... (٢١) ﴾ [الجاثية]. جرحتم: كسبتم. واجترحتم: اكتسبتم.

يا محمد أن تبشرهم بالجنة. ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق - إذن - هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم - هو الخصلة التى لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعنى التنحّى عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [١].

إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون.

وحين يصدق التاجر فى ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل فى إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفى فى نقل الخبر ، ويصدق كل فرد فى المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد فى الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذى يخل بحركة الحياة.

لذلك أتى الله بكلمة الصدق فى القرآن فى أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا [٢] بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ...(٩٣) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.
(٢) بوّأ: أنزلَ وأسكن. والمبوّأ: المكان الذى أنزلهم الله تعالى فيه.

فحين قالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... (٦١) ﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، [1] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتى الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ [2] صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

أي : اجعل لى ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدى ، فلا يقال فى تاريخى كلام كذب ، وألا يخلع علىَّ الناس ما ليس فىَّ .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [3] ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي [4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأنقذهم الله من فرعون وجنوده ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم ، فقالوا : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة].

(٢) اللسان معروف وهو فى تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت وينوعه . قال تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] .

واللسان : أحد حواس الذوق والنطق . قال تعالى : ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد] واللسان : اللغة . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] ولسان صدق : السمعة الطيبة والذكر الحسن .

(٣) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ؛ وفصلت المرأة ولدها ، أي : فطمته . وفَصَل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وافتصله : فطمه .

(٤) أوزعنى : أي : ألهمنى ووفقنى إلى أن أشكر نعمتك . .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه فى الغد فى مكان ما لتتحدثا فى أمرٍ ما.

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك فى هذه المسألة ؟

إذن : لا تجازف بأن تعد بشىء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران].

لأنه باق . ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً يتغير. بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [1] بأنهم سوف يقعدون فى حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر. وسبحانه يقول: ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... (٨٠) ﴾ [الإسراء]

أى: أدخلنى فى هذه البلدة مدخل صدق للغاية التى لا أستحى من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأنا أخفى غرضاً آخر ، وكذلك أخرجنى منها مخرج صدق.

إذن: فكلمة الصدق دائرة ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ و﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ و﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ و﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ وكل هذا يُحببنا فى الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [2].

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... (٢) ﴾ [يونس]

أى: أن لهم سابقة فَضْل عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

---

(١) من هؤلاء المتقين الذين وردت السنة بأنهم فى مقاعد صدق عند الله عز وجل، المقسطون، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٧) والنسائى فى سننه (٨/ ٢٢١).

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً..» الحديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧).

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه:

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول: إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَاتَّهَمَ بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [1].

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [2] ، لأن لباقة السامع ستنتهى إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ۝٢٢﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له: لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم فى الوصف الذى يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة فى الموسم فأرادوا أن يجمعوا على رأى فيه ، أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠): «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، وانتهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم .

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسناً لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ...(٣١)﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ [1] أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ [2] بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]

وتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم . وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً .

---

(١) السوأة في اللغة : العورة . والسوأة : الفَرْج . قال تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ...(٢٠)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ...(٢٢)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ...(٢٦)﴾ [الأعراف] . والمراد بالسوأة هنا : جسم الميت (قابيل) .

(٢) سبأ : اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهي مدينة تعرف بمأرب قريبة من صنعاء .
وسبأ : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو « سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » .

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة.

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التى إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء فى لقطة أخرى فى قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن [1] ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها [2] ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] .

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] ثم جاءها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس : قد والله عرفت ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣) .

إذن : فهو قد علم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين فى الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادى ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادى ، لكن الذى تكلم جنى غير عادى ، ذكى ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة فى تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠)﴾ [النمل]

---

(١) العفريت : الشديد القوى . وقد يكون من الإنس أو من الجن . وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٣) هو آصف بن برخياء كاتب سليمان ، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم . قيل : إنه قال : ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه قال : يا إلهنا وإله كل شىء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه فى تفسيره (٣/ ٣٦٤) .

وهكذا حذف التفاصيل التى يسهل معرفتها ، والتى وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس .

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ [1] مُّبِينٌ ② ﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر [2] . ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذى يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهى ليست بحقيقة .

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهى العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون [3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت .

---

(١) وردت الآية بقراءتين ، فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى « لساحر » وصفاً لرسول الله ﷺ . وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٣) . والقراءتان مؤداهما واحد .

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر فى بضع آيات من القرآن :
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ④③ ﴾ [سبأ] .
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ③⓪ ﴾ [الزخرف] .
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [الأحقاف] .
* وفى آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر :
- ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ④ ﴾ [ص] .

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⑥⑥ ﴾ [طه] .

والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... (١١٦) ﴾ [الأعراف]

أى : سحروا الأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشىء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائى ، بل تغير من[1] حقيقة المرئى فعلاً . وقد دَلَّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوَّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته ، والسحر يطلق على الشىء الجميل المؤثر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقد يكون السحر بحاسة من الحواس فيقال : عينه ساحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله .

(٢) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي (١٨) ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٣) مآرب أخرى : مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك .

إذن : فلم يكن هناك سحر فى عينى موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعلىّ فى حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث فى حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا فى منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه]

وقبل موسى عليه السلام التحدى ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

وقوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ يعنى : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر[1] يرى الشىء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشىء ، فيُخيَّل إليه أنه شىء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] والمسحور والمسحَّر مَنْ به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل الساحر ، والسحار صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] والسحر : الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور . أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معّد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر .

---

(١) القرآن الكريم مثبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] .